

الرؤية التأملية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري مقارنة إحصائية

أ. وسيلة مرياح

جامعة ميله-الجزائر

ملخص المداخلة

تعالج هذه المداخلة موضوعات تأملية ذات الصلة بالخطاب الصوفي عند الأمير عبد القادر الجزائري، مبرزة توجه الأمير الفكري في مسائل الكون والحياة، خاصة تلك النصوص الشعرية التي قدم بها لكتابه "المواقف" .

وللوقوف على أهم موضوعات الرؤية التأملية في شعر الأمير عبد القادر وقفة موضوعية بعيدة عن الأحكام المسبقة والجاهزة حاولنا تطبيق المنهج الإحصائي، فأنزلنا إجراءاته على نصوصه الشعرية الصوفية بغرض إحصاء الأدوات التعبيرية التي وظفها الشاعر مبرزاً من خلالها مذهب الفكري والتأملي للوصول إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية:

ما هي رؤية الأمير عبد القادر لقضايا الكون والحياة ؟ وما هي موضوعاتها؟ وكيف تجلت إحصائياً على مستوى اللغة؟

Résumé :

Cette présentation a porté le discours mystique contemplative pertinente aux sujets Emir , Soulignant l'orientation intellectuelle dans les questions de l'univers et de Abdelkader algériens la vie, en particulier les textes poétiques de la présentation de son livre "El-mawkife" .

Pour étudier des sujets les plus importants dans la vision contemplative du texte poétique de l'Emir Abdelkader étude objective est loin des préjugés que nous avons essayé d'appliquer la méthode statistique pour les textes poétiques soufis dans le but de compter les outils d'expression utilisés par le poète, et répondre au problème suivant :

Quelle est la vision de l'Emir Abdelkader aux questions de l'univers et de la vie? Quels sont les thèmes? Et comment statistiquement émergé sur le niveau de langue?

تمهيد:

نقصد بالرؤية التأملية جملة الآراء الفكرية المبنوثة في شعر الأمير عبد القادر عموما و بالأخص شعره الصوفي الذي قدم به لكتابه المواقف، فكل تلك القصائد - وإن اختلفت في الوزن - إلا أنها تحمل قضايا فكرية تتحدد من خلالها المعالم الأساسية لمذهب الشاعر التأملي في مسائل الكون والحياة سنتطرق إليها بالتفصيل في مواضيع هذه الرؤية .

قد قيل عن تصوف الأمير الكثير، فهناك من يرى توجهه إلى التصوف هو سد الفراغ الذي كان يعانيه في الأسر وبعده في المنفى، ذلك لأن الأمير لم يجد ما يشغله في ظل تلك الظروف المظلمة، فهرب من واقعه المر وجنح إلى التصوف الذي وجد فيه ملاذه، ويمثل هذا الاتجاه أبو القاسم سعد الله الذي يقول: "وقد يكون التصوف ودراسته والتعمق فيه قد اتخذته وسيلة لملا الفراغ القاتل الذي كان يعيشه، فرجل مثله كان يتقد بطولة وفروسية وحيوية وآمالا فإذا به سجين في فرنسا، وشبه سجين في بروسة، وتحت إقامة جبرية في دمشق (...). إن هذه القيود قد أثقلت كاهله فناشد، ربما، حريته في التصوف الذي يحرره من الارتباط من المخلوقات، والاتجاه إلى الخالق وحده"¹، ويمكن أن نظيف إلى هذا العامل عاملا آخر مهما وهو أن الأمير عبد القادر كانت له ميولات دينية منذ صباه ولقد "كان طموحه الأكبر في شبابه أن يكون مرابطا مثل والده"²، ولولا الظروف العسكرية التي وضع فيها قهرا لكان له ذلك .

وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك وينفي انتساب الأمير عبد القادر إلى التصوف إطلاقا، ذلك لأن الأمير عبد القادر الجزائري كان من العلماء الذين اشتهروا بالاستقامة وعلو المنزلة الشرعية، والصلاح، والعمل بسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والوقوف عند حدود الشريعة السمحاء، فلماذا يطلق عليه مصطلح متصوف "وهو مصطلح سبق أن تناولته اليونان و جرامقة الفرس، وأصبح هذا المصطلح متسعا

¹ - شارل هنري شرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2009م ، ص16.

² - المصدر نفسه: ص62.

لكل خير وكل شر من مبالغة في الزهد وغلو وانحراف حتى الوصول إلى إلغاء الفرائض أي كلمة مفتوحة لكل عابث بأحكام الدين أو جاهل ومرتد أو صالح زاهد، لذلك ليس من العدل والحكمة واحترام منزلة الآخرين نعتهم بالصوفية بشكل مطلق³، ويمثل هذا الاتجاه حفيدته "الأميرة بديعة حسني الجزائري".

إلا أن معظم الدارسين لا ينكرون التوجه الصوفي للأمير عبد القادر، إذ يعتبر التصوف أحد وجوه شخصيته الفكرية، والصوفية هي أول ما اتجه إليه الأمير، وإن كانت آخر ما ظهر عليه وبالأخص أثناء أسره في فرنسا، فكان من الطبيعي أن يكون للمحن التي تعرض لها في معتقله، والعزلة التي فرضت عليه هناك، أثرهما في توجه الأمير إلى الخلوة والتأمل مما أيقظ في داخله ذلك النزوع الصوفي الذي تغذاه في صباه.

ولعل هذا ما يشير إليه في كتابه المواقف بقوله: "دخلت مرة خلوة، فعندما دخلتها أنكرت نفسي، وضاق علي الأرجاء، وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة والأنس وحشة، والمطايبة مشاغبة، والمسامرة منكرة، فكان نهاري ليلا، وليلي ويا وويلا، ومكن الشيطان بالتمريج والتخليط، وأي قرية أردتها أبعدت بها، فلم يبقى معي من أنواع الصلّة إلا الصلّة، وفي أثناء هذا الابتلاء رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام (...) ففهمت من إشارته - صلى الله عليه وسلم - بالدعاء أن الخطب جسيم والأمر عظيم فكان بعد ذلك شغلي الدعاء والتضرع...⁴، وقد انعكس توجهه الصوفي في موضوعات شعره سنتطرق إليها فيما يأتي:

موضوعات الرؤية التأملية:

³ -بديعة الحسني الجزائري: الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة، الجزائر، دط، د ت، ص68.

⁴ - عبد القادر الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، مج1، الموقف: 211، موفم للنشر، دط، 1996 م، ص141.

إن الإنسان نزاع بطبعه إلى المعرفة، ميال إلى تفسير ما يقع تحت حسه من ظواهر، راغب في الوصول إلى علل الأشياء، وهو لهذا يسعى جاهدا في تحصيل العلوم والمعارف وألوان الثقافات، لكن كل ما حصله من علوم ومعارف عقلية لم يوصله إلى علة الوجود وكنهه، وقد بقى على حيرته في هذه الناحية، دون أن تجديه معارفه شيئا، هذه الحيرة عبر عنها الأمير عبد القادر بقوله في قصيدة "أيا حيرتي"⁵:

أَيَا حَيْرَتِي مَا الَّذِي أَصْنَعُ لَقَدْ ضِفْتُ نَزْعًا فَمَا يَنْفَعُ

أَكَادُ تَرَانِي مُنْفَطِرًا جَوَاهِرِي مَبْثُوثَةٌ أَجْمَعُ

وَتَارَةً أَدُوبُ كَتَلَجٍ بِمَا فَالَ إِلَى أَصْلِهِ أَنْفَعُ

وَكُلَّمَا قُلْتُ هَذَا مَخْرَجُ يُسَدُّ عَلَيَّ فَمَا أَطْلَعُ

ومن أساليب التعبير التي وظفها الأمير عبد القادر لإظهار حيرته أسلوب الاستفهام، فشكلت أدواته ظاهرة أسلوبية في ديوانه بشكل عام وفي رؤيته التأملية بشكل خاص، ويتضح ذلك من خلال الجدول الإحصائي الآتي:

الرؤية	الرؤية البطولية		الرؤية الوجدانية		الرؤية التأملية	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
الهمزة	03	%07,31	02	%10,00	01	%01,42
هل	01	%02,43	05	%25,00	35	%50,00
من	—	%00,00	02	%10,00	14	%20,00
ما	—	%00,00	02	%10,00	11	%15,71

⁵ - المواقف ، مصدر سبق ذكره، مج 1، ص5.

كيف	01	%02,43	01	%05,00	01	%01,42
كم	33	%80,48	02	%10,00	03	%04,28
أين	-	%00,00	-	%00,00	04	%05,71
أي	01	%02,43	02	%10,00	01	%01,42
متى	01	%02,43	01	%05,00	-	%00,00
لم	-	%00,00	-	%00,00	-	%00,00
علام	-	%00,00	-	%00,00	-	%00,00
فيم	-	%00,00	-	%00,00	-	%00,00
أنى	-	%00,00	-	%00,00	-	%00,00
لماذا	-	%00,00	-	%00,00	-	%00,00
ماذا	01	%02,43	03	%15,00	-	%00,00
المجموع	41		20		70	
النسبة		%31,29		%15,26		%53,43

ملاحظة : تم الاعتماد في هذا الجدول على إحصاء قصائد الرؤية البطولية، وقصائد الرؤية الوجدانية،

وقصائد الرؤية التأملية ذات العناوين الآتية:

-قصائد الرؤية البطولية: وراء الصورة، و أبونا رسول الله، و بنا افتخر الزمان، و لبيك تلمسان، وبي يحتمي

جيشي، وشددت عليه شدة هاشمية، والباذلون نفوسهم.

-قصائد الرؤية الوجدانية:مجموع قصائد الغزل + مسكين لم يذق طعم الهوى، و أنا الحب والمحبوب والحب

جملة.

قصائد الرؤية التأملية: مجموع القصائد التي قدم بها الأمير لكتابه "المواقف" + قصيدة أستاذي الصوفي.

يتضح من الجدول الإحصائي أن تواتر أدوات الاستفهام في الرؤى الثلاث جاء بنسب متفاوتة، إذ بلغت 31,29% في الرؤية البطولية، و15,26% في الرؤية الوجدانية، وارتفعت نسبة التواتر أكثر في الرؤية التأملية فبلغت 53,43%، وهذا الارتفاع يتناسب وموضوعات الرؤية التي تقوم على أساس البحث عن المعرفة للوصول إلى اليقين، والاستفهام "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته، وهي: الهمزة، وهل، وما، ومن، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأنى، وكم، وأي"⁶.

كما نلاحظ من خلال الجدول ارتفاع تواتر الاستفهام بأداة "هل" في الرؤية التأملية بنسبة بلغت 50,00%، وهي بذلك تحتل المرتبة الأولى قياساً مع أدوات الاستفهام المتبقية، التي مثلت نسباً متوسطة وضعيفة، لذا عدت الأداة "هل" ملمحاً أسلوبياً في شعر الرؤية التأملية، وهي أداة "يطلب بها التصديق فقط، أي معرفة وقوع النسبة، أو عدم وقوعها لا غير"⁷.

و قد وظف الأمير عبد القادر هذه الأداة للتعبير عن حيرته في مسائل متعددة فقال⁸:

فَهَلْ أَنَا مَوْجُودٌ وَهَلْ أَنَا مَعْدُومٌ وَهَلْ أَنَا ثَابِتٌ وَهَلْ أَنَا مَنْفِيٌّ؟

وَهَلْ أَنَا مُمَكِّنٌ وَهَلْ أَنَا وَاجِبٌ وَهَلْ أَنَا مَحْجُوبٌ وَهَلْ أَنَا مَرْنِيٌّ؟

وَهَلْ أَنَا فِي قَيْدٍ وَهَلْ أَنَا مُطْلَقٌ وَلَسْتُ سَمَويًّا وَلَا أَنَا أَرْضِيٌّ؟

⁶ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية،

صيدا، بيروت، دط، دت، ص78.

⁷ - أحمد الهاشمي: مصدر سبق ذكره، ص79.

⁸ -المواقف: مج 1 ، ص5.

وَهَلْ أَنَا فِي حَيْرٍ وَهَلْ أَنَا نَازِحٌ وَهَلْ أَنَا ذَا شَيْءٍ وَهَلْ أَنَا لَا شَيْءٍ؟

وَهَلْ أَنَا ذَا حَقٍّ وَهَلْ أَنَا ذَا خَلْقٍ وَهَلْ عَالَمِي غَيْبٌ أَوْ أَنِّي شَهَادِي؟

وَهَلْ أَنَا جَوْهَرٌ، وَهَلْ أَنَا ذَا كَيْفٍ وَهَلْ أَنَا جِسْمَانِي أَوْ أَنِّي رُوحَانِي؟

وَهَلْ أَدْرِي مَنْ أَنَا فِي هَذَا تَحِيرِي وَهَلْ أَنَا ذَا مَيِّتٍ وَهَلْ أَنَا ذَا حَيٍّ؟

وَهَلْ أَنَا مَجْبُورٌ وَهَلْ لِي خَيْرَةٌ وَهَلْ أَنَا عَالِمٌ وَهَلْ جَاهِلٌ عَمِي؟

وَهَلْ فَاعِلٌ أَنَا وَهَلْ غَيْرِي فَاعِلٌ وَهَلْ قَدْرِي يُقَالُ أَوْ أَنَا ذَوْقِي؟

يبدو في هذه الأبيات تواتر أداة الاستفهام "هل" بكثرة، بمجموع بلغ 30 مرة أي بمعدل تكرار يقدر بثلاث مرات في البيت الواحد، وقد خرج أسلوب الاستفهام في هذه الأبيات إلى غرض أسلوبى مفاده حيرة الشاعر في قضايا متعلقة بالحياة والوجود والكون، وجاءت "هل" مرتبطة بجملة اسمية يتصدرها ضمير المتكلم "أنا" دلالة على أن الحيرة لا تنفك عنها نفس السالك، فمهما ركن إلى اليقين فإنسيته لا تفتأ تنزع به إلى الحيرة.

1- الذات الإلهية:

هذه المسألة ليست وليدة فكر الأمير عبد القادر في العصر الحديث، وإنما هي مسألة عريقة خاضت فيها الفرق الكلامية كثيراً، وحكمت عقلها في وصف الذات الإلهية، وانقسمت الآراء إلى قسمين بين منزّه ومشبه، ولا يوجد موقفاً وسطاً يجمع بين الموقفين ويوفق بين الرأيين، فإما منزّه تنزيهاً مطلقاً، وإما مشبه تشبيهاً مطلقاً، وبين هذا وذاك يقول الأمير عبد القادر الجزائري: "فمن شهد التنزيه فقط كالمنزهة من

المتكلمين أخطأ، ومن قال بالتشبيه فقط كالحلولية والاتحادية أخطأ، ومن قال بالجمع بين التشبيه والتنزيه أصاب، فالعامة في مقام التشبيه، والعقلاء في مقام التنزيه، والعارفون بالله تعالى في مقام التنزيه والتشبيه⁹.
قد أخطأ كل من المنزهة والمشبهة في معرفة الله- في نظر الأمير- لأنهم حكموا عقولهم، وعرفوه المعرفة التي اقتضتها القوة العقلية، وبذلك أضلوا السبيل، لأنهم شبهوه بعقولهم، ونزهوه بعقولهم، ففتحوا له صورة قاصرة نابعة من قصور العقل.

هذه أفكار الأمير على مستوى مؤلفه المواقف، أما على مستوى أشعاره فقد وظف الأمير عبد القادر أساليب لغوية تعكس رؤيته للذات الإلهية من بينها الأساليب الإنشائية، "والإنشاء لغة يعني: الإيجاد، واصطلاحاً: ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، نحو "اغفر" و "ارحم"، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب"¹⁰، وينقسم الإنشاء إلى طلبى: "وهو خمسة أنواع: الأمر، النهي، التمني، الاستفهام، النداء"¹¹، و يعرف بأنه: "ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، لامتناع تحصيل الحاصل وهو المقصود بالنظر"¹²، وغير طلبى: "وهو ما يستدعي مطلوباً حاصلًا"¹³، وسنهتم في دراستنا هذه بتسليط الضوء على القسم الأول "لأن كثيراً من الإنشاءات غير الطلبية أخبار في الأصل نقلت إلى الإنشاء"¹⁴

⁹ -المواقف: مج3،الموقف:353،ص55.

¹⁰ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، مصدر سبق ذكره، ص69.

¹¹ -أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة (البيان والمعاني والبدیع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ،
1993م، ص61.

¹² - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ، 2003م.

¹³ -أحمد مصطفى المراغي: مرجع سبق ذكره، ص 61

¹⁴ -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وقد تفاوت حضور الأساليب الإنشائية في قصائد الرؤية التأملية، الأمر الذي يشي بوجود دلالات

سنتطرق إليها بعد رصدنا لهذه الأساليب:

جدول رقم (1): يوضح إحصاء الأسلوبين الإنشائيين التمني والأمر في قصائد المواقف:

الأسلوب الإنشائي	عنوان القصيدة	عدد التواتر	نسبة التواتر	الأسلوب الإنشائي	عنوان القصيدة	عدد التواتر	نسبة التواتر
التمني	فلو رأيت	01	12,5%	الأمر	فلو رأيت	00	—
	يا صاح	01	12,5%		يا صاح	00	—
	أمطنا الحجاب	00	—		أمطنا الحجاب	00	—
	تجلى لي المحبوب	01	12,5%		تجلى لي المحبوب	12	28,57%
	أرى الذي أفناني	02	25,0%		أرى الذي أفناني	01	2,38%
	لقد حرت	00	—		لقد حرت	02	2,00%
	أيا حيرتي	00	—		أيا حيرتي	01	2,38%
	أنا مطلق	01	12,50%		أنا مطلق	08	19,04%

يا من غدا عابدا لفكره	01	%12,50	يا من غدا عابدا لفكره	09	%21,42
يا عظيما	00	—	يا عظيما	03	%7,14
لا تعجبوا	00	—	لا تعجبوا	00	—
يا نور بلا شمس	00	—	يا نور بلا شمس	04	%9,52
أنا حق	00	—	أنا حق	00	—
لا شك أني مجبور	02	%25,00	لا شك أني مجبور	02	%4,76
المجموع	08	%100	المجموع	42	%100

جدول رقم (2): يوضح إحصاء الأسلوبين الإنشائيين النهي والاستفهام في قصائد المواقف :

الأسلوب الإنشائي	عنوان القصيدة	عدد التواتر	نسبة التواتر	الأسلوب الإنشائي	عنوان القصيدة	عدد التواتر	نسبة التواتر
	فلو رأيت	00	—		فلو رأيت	01	%2,17
	يا صاح	00	—		يا صاح	00	—

أمننا	04	%23,52	النهي	أمننا	01	%2,17	الاستفهام	أمننا	01	%2,17
الحجاب				الحجاب				الحجاب		
تجلى لي	01	%5,88		تجلى لي	01	%2,17		تجلى لي	01	%2,17
المحبوب				المحبوب				المحبوب		
أرى الذي	00	—		أرى الذي	00	—		أرى الذي	00	—
أفنائي				أفنائي				أفنائي		
لقد حرت	00	—		لقد حرت	00	%65,21		لقد حرت	30	%65,21
أيا حيرتي	00	—		أيا حيرتي	00	%17,39		أيا حيرتي	08	%17,39
أنا مطلق	08	%47,05		أنا مطلق	08	—		أنا مطلق	00	—
يا من غدا	01	%5,88		يا من غدا	01	%2,17		يا من غدا	01	%2,17
عابدا لفكره				عابدا لفكره				عابدا لفكره		
يا عظيما	02	%11,76		يا عظيما	00	—		يا عظيما	00	—
لا تعجبوا	01	%5,88		لا تعجبوا	00	—		لا تعجبوا	00	—
يا نور بلا	00	—		يا نور بلا	03	%6,51		يا نور بلا	03	%6,51
شمس				شمس				شمس		
أنا حق	00	—	النهي	أنا حق	00	—	الاستفهام	أنا حق	00	—

لا شك أنني مجبور	00	—	لا شك أنني مجبور	01	%2,17
المجموع	17	%100	المجموع	46	%100

جدول رقم (03): يوضح إحصاء الأسلوب الإنشائي: " النداء "

الأسلوب الإنشائي	عنوان القصيدة	عدد التواتر	نسبة التواتر
النداء	فلو رأيت	02	%06,89
	يا صاح	01	%03,44
	أمتنا الحجاب	00	%00,00
	تجلى لي المحبوب	01	%03,44
	أرى الذي أفناني	00	%00,00
	لقد حرت	00	%00,00
	أيا حيرتي	02	%06,89
	أنا مطلق	00	%00,00
	يا من غدا عابدا لفكره	03	%10,34
	يا عظيما	01	%03,44

لا تعجبوا	00	%00,00
يا نور بلا شمس	16	%55,17
أنا حق	00	%00,00
لا شك أنني مجبور	03	%10,34
المجموع	29	%100

من الجداول الإحصائية (1)، (2)، (3) نخلص إلى النتائج الآتية:

الأساليب الإنشائية	العدد	نسبة التواتر
التمني	09	%06,29
النهى	17	%11,88
الأمر	42	%29,37
النداء	29	%20,27
الاستفهام	46	%32,16
المجموع	143	%100

إن ما نلاحظه من خلال هذا الجدول ارتفاع نسبة تواتر أسلوب الاستفهام بمجموع بلغ 46 مرة، ما يعادل

نسبة 32,16 %، محتلا بذلك المرتبة الأولى، ثم يليه أسلوب الأمر بمجموع بلغ 42، بنسبة تقدر بـ

29,37% ، متبوعا بأسلوب النداء الذي بلغ مجموع تواتره 29 مرة، ما يعادل نسبة 20,27%، ثم أسلوب النهي بمجموع تواتر بلغ 17 مرة، أي بنسبة بلغت 11,88%، وأخيرا أسلوب التمني الذي تواتر 09 مرات أي ما يعادل نسبة 06,29% ، و سنتطرق فيما يأتي إلى بعض هذه الأساليب، ومدى إبرازها لرؤية الأمير لحقيقة الذات الإلهية:

1-أسلوب الاستفهام: "والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكما بشيء على شيء أو لا يكون"¹⁵، وقد وظفه الأمير متعجبا من الذين وظفوا عقولهم في الحكم على الذات الإلهية فقال¹⁶:

فَيَا خَيِّبَةَ الْعَقْلِ فِي حُكْمِهِ عَلَى الْعَيْنِ سَتَرِي فَلَا يَفْشَعُ

فَأَيْنَ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِ عَلَا؟ وَمَنْ هُوَ فِي أَسْفَلِ الْأَرْضِ غَوَا؟

أفاد الاستفهام في هذه الأبيات تعجب الأمير عبد القادر من أمر المتكلمين الذي حكموا عقولهم في فهم حقيقة الذات الإلهية.

2-أسلوب الأمر: ومفهومه هو: "طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء"¹⁷، وقد برز هذا الأسلوب في قصيدة " يا من غدا عابدا لفكره"، إذ تواتر تسع (09) مرات وهي القصيدة التي يناهض فيها الأمير أصحاب العقل وينصح بالترام الشرع واتباع النصوص القرآنية التي أنبأت عن الذات الإلهية فيقول¹⁸:

¹⁵ -أبو يعقوب يوسف السكاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، دط، 1983م، ص303.

¹⁶ - المواقف: مج 1، ص6

¹⁷ -أحمد مصطفى المراغي: مرجع سبق ذكره، ص 75

عَلَيْكَ بِالشَّرْعِ فَالزَّمْ طَرِيقَتَهُ فَحَيْثُ مَا سَارَ سِرٌّ، وَإِنْ يَقِفْ فَقِفْ

إِنْ قَالَ لَيْسَ كَمِثْلِي شَيْءٌ قُلْ هُوَ ذَا أَوْ قَالَ لِي أَعَيْنُ فَقُلْ بِذَا كَلْفِي

شَبَّهَهُ نَزَّهَهُ فِي التَّشْبِيهِ حَتَّى تَرَى مُنْزَهَا أَخَا تَشْبِيهِ بِلا جَنْفٍ.

أفرز أسلوب الأمر في هذه الأبيات رؤية الأمير عبد القادر، حيث يرى أن لمعرفة الذات الإلهية معرفة حقة . من دون تنزيه ولا تشبيه . يجب التزام الشرع واتباع النصوص كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من دون تأويل عقلي محرف، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، والمطلوب منا أن نقرأه بلغته، ونفوض المعاني إلى الله تعالى "وأن الله مستو على العرش كما قال، وأن له وجها كما قال، وأن له عينين كما قال، وأن له يدين كما قال بلا كيف"¹⁹. وسبحانه عندما قال: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" فنفهمها على أن "نسبة الأشياء من النعوت والصفات إليه ليست كنسبتها إلى المحدثات، فإن ذاته تعالى مجهولة، فنسبت ما ينسب إليه تعالى مجهول (...)فقله: "الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" الاستواء معلوم والكيف مجهول"²⁰ وقس على ذلك الصفات الأخرى "فإن آله الأنبياء والرسل والأولياء مشبه منزله في تشبيهه"²¹.

3-أسلوب النهي: عرف هذا الأسلوب بأنه: "هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء"²²، وقد تواتر هذا الأسلوب بكثرة في قصيدة " أنا مطلق" بنحو ثمان (8) مرات، ليتناسب وموضوع هذه القصيدة فيقول الأمير²³:

¹⁸ -المواقف: مج1، ص6.

¹⁹ -المواقف: مج3، الموقف:336، ص18.

²⁰ -المواقف: مج1، ص16.

²¹ - المصدر نفسه: ص18.

²² -أحمد مصطفى المراغي: مرجع سبق ذكره، ص 79.

أَنَا مُطْلَقٌ فَلَا تَطْلُبُوا الدَّهْرَ لِي قَيْدًا وَمَا لِي مِنْ حَدٍّ فَلَا تَبْغُوا لِي حَدًّا

.....

وَلَا تَنْظُرُوا غَيْرِي مِنْ كُلِّ صُورَةٍ فَلَا تَنْظُرُوا عَمْرًا وَلَا تَنْظُرُوا زَيْدًا

وَلَا تَطْلُبُوا غَيْرِي فَمَا هُوَ كَائِنٌ سِوَى خَيَالَاتٍ تَحْسِبُونَ لَهَا وَجْدًا.

وهكذا أسهمت الأساليب الإنشائية في إبراز رؤية الأمير عبد القادر الجزائري لحقيقة الذات الإلهية، حيث بدا مناهضا لأصحاب العقول الذين نزهوا الذات الإلهية تنزيها مطلقا، كما بدا أيضا متعجبا من أمر المشبهة الذين شبهوا الذات الإلهية تشبيها مطلقا، وبين هذا وذاك نصح الأمير عبد القادر بالتزام الشرع الذي أنبأ عن حقيقة الذات الألهية.

2. النور المحمدي (الإنسان الكامل):

كان الشعراء في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يمدحونه بكثرة، ولم يكونوا ينزعون في مدحهم نزعة واحدة، بل اختلفت في ذلك مشاربهم ونظروا إلى موضوع المدح من زوايا مختلفة، فمنهم من مدحه - صلى الله عليه وسلم - كما يمدح أي عظيم في قومه، فيذكر المآثر، والأخلاق، وذيوع الذكر، وبعد الصيت، والقوة والنفوذ في عشيرته... إلى غير ذلك من المعاني التي درج الشعراء على ترديدها في مدائحهم، ومنهم من مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - من زاوية أخرى وهي الناحية الدينية، فهو الذي جاء وفي يده معجزة خالدة، هي كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهدف شعر المدح في حياته - صلى الله عليه وسلم - هو الدفاع عن الإسلام ونصرته، والدعوة له، ورفع أذى أعدائه عنه وبيان فضله، وتفصيل الخير الذي أتى على يديه .

ثم كان لهذه المدائح تطور بعيد المدى في القرون التالية في ظل التصوف الإسلامي، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مدح بعد وفاته كما مدح في حياته، وكانت المدائح في كل عصر تتضمن آراء قائلها في رسول الإسلام، ومن هنا اتخذت المدائح النبوية أشكالاً مختلفة على مر العصور وحتى انتهى بها الأمر إلى الارتكاز على مذهب من مذاهب التصوف هو "النور المحمدي" الذي نادى به الحلاج، وهو أول صوفي قال بهذه النظرية التي تقضي بقدوم نور سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وتجعله مصدر الخلق جميعاً، ومن نوره ظهرت أنوار النبوات، وما سائر الأنبياء إلا صور من ذلك النور الأزلي، فقد كانت الصورة الكاملة في محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وأول خلق الله أجمعين، وعن الحلاج انطلقت نظريته في النور المحمدي في الأزمنة التالية "حاملة أسماء مختلفة مثل "الإنسان الكامل" أو "القطب" ولكن جوهر النظرية ظل كما وضعه الحلاج في القرن الثالث"²⁴

أصداء هذه النظرية تعكسها بعض أشعار الأمير عبد القادر، إلا أنها تتضمن عنده معانٍ متنوعة تتعلق أحياناً بالحقيقة المحمدية، وأحياناً أخرى تحيل إلى العبد في أوج ترقياته العروجية حين يصل إلى مرتبة فتجتمع لديه كمالات الوجود العقلي والروحي والمادي "فمحمد - صلى الله عليه وسلم - هو روح العالم فهو الإنسان الكامل الذي لا أكمل منه، ومرتبة الكمل النازلين عن درجة هذا الكمال الذي هو الغاية منزلة القوى الروحانية من العالم وهم الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - ومنزلة من نزل في الكمال عن درجة هؤلاء من العالم منزلة القوى الحسية وهم الورثة، رضوان الله عليهم"²⁵.

²⁴ - عبد الحكيم حسان: التصوف في الشعر العربي، مرجع سبق ذكره، ص 373.

²⁵ - المواقف: مج 3، الموقف: 367، ص 127.

وتتضح رؤية الأمير للإنسان الكامل من خلال الأساليب الموظفة في قصائده، ونخص بالذكر قصيدته "أستاذي الصوفي"، ومن تلك الأساليب "أسلوب الحذف" الذي عد ملمحا أسلوبيا بارزا في هذه القصيدة، ونخص بالدراسة الحذف على مستوى البنية الاسمية، وقد ظهر هذا الأسلوب بنوعيه، حذف المسند إليه (المبتدأ)، وحذف المسند (الخبر)، وقد تفاوت حذفهما في موضوعات القصيدة، كما سيتضح من خلال الجدولين الآتيين:

الجدول الأول: يوضح مواطن ومواضيع حذف المسند إليه

رقم البيت	المسند إليه	المسند	الموضوع	العدد	النسبة
02	هي	ليالي	ليالي الأمير	01	%05,56
13	هي	بطاح	بطاح مكة	01	%11,11
14	هي	بطاح	بطاح مكة	01	
22	هو	عيازي ملاذي عمدتي	الشيخ	03	%77,78
23	هو	غياثي منيري مجيري	الشيخ	03	
25	هو	محمد الفاسي	الشيخ	01	
30	هو	صفوح	الشيخ	01	%77,78

31	هو	هشوش بشوش	الشيخ	02	
34	هو	ذليل عزيز	الشيخ	02	
36	هو	حريص رحيم	الشيخ	02	
68	هي	معتقة	الخمرة	01	%05,56
المجموع			18		%100

الجدول الثاني: يوضح مواطن ومواضيع حذف المسند.

رقم البيت	المسند إليه	المسند المقدر	الموضوع	العدد	النسبة
03	لا بدر	يضيء/ موجود	الأمير	01	%50,00
11	لا وعر	هناك	الأمير	01	
15	لا عجب	في ذلك/ كائن	الأمير	01	
13	لا فخر	موجود	بطاح مكة	01	%16,67
48	كل كرار	يشبه	مقارنة الشيخ	01	%33,33
58	لا حجر	لديه	الشيخ	01	
المجموع		06			%100

يتضح من الجدول الأول أن مواطن مواضيع الشيخ بلغت أربع عشرة (14) مرة ما يعادل نسبة 77,78% وهي أعلى نسبة في مواضيع حذف المسند إليه، وفي هذا دلالة على حضور الشيخ في فكر الأمير، وقربه من وجدانه، ولا حاجة له بأن يذكره بضمير غائب الذي يوحي بالغياب والبعد، بينما قلت مواطن الحديث عن الشيخ في الجدول الثاني بنسبة بلغت 33,33% ، ويعود ذلك إلى أن الأمير يريد أن يبلغ فكرة الإنسان الكامل ويعرف به، لذلك حرص على تزويد المتلقي بأكبر عدد من الصور عن شيخه، الذي جعله حاضرا في ذهن القارئ كمبتدأ، فكثرت الأخبار المحذوفة مبتدأتها، وهذا ما جعل حذف الأخبار المتعلقة بالشيخ قليلة جدا.

ومن أمثلة حذف المسند إليه قول الأمير:²⁶

عِيَاذِي، مَلَاذِي، عُمْدَتِي ثُمَّ عُدَّتِي وَكَهْفِي، إِذَا أَبْدَى نَوَاجِذَهُ الدَّهْرُ

غِيَاثِي مِنْ أَيْدِي الْعُدَاةِ، وَمُنْقِذِي مُنِيرِي، مُجِيرِي، عِنْدَمَا عَمَّنِي الْعُمُرُ

وَمُحْيِي رُفَاتِي، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ رَمَةً وَأَكْسَبَنِي عُمُرًا، لِعُمُرِي، هُوَ الْعُمُرُ.

يدل حذف المسند إليه في هذه الأبيات على مكانة الشيخ عند المريد، و إشارة إلى العلاقة التي يجب أن تكون بين الشيخ الذي حصل له الكمال، والمريد الذي دائم الاحتياج إلى فيضه وعطائه، فيتحدث الأمير في هذه الأبيات عن شيخه "محمد الفاسي" الذي كان له الفضل في إنقاذه من حياة الضنك، فتقديرا له و لأفضاله استبعد ذكره باسمه، أو بضمير يعود عليه، لأن في ذكر الضمير هو إحياء بالبعد كونه ضمير غائب، وحرص على الإخبار عنه فأنت الأخبار تترى (عياذي، ملاذي، عمدتي، عدتي، غياثي، منيري، مجيري)،

²⁶ -الديوان :ص 201.

كما ترجم حذف المسند إليه في هذه الأبيات حاجة المريد إلى شيخه، فبدا الأمير وكأنه ينادي شيخه لولا قرينة الإخبار في قوله: "إذا أبدى نواجذه الدهر"، وفي قوله أيضا: "عندما غمني الغمر".

كما دل حذف المسند إليه على تسامي الإنسان الكامل بنبل أخلاقه، فيقول:²⁷

صَفُوحٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ لِهَيْبَتِهِ ، ذَلَّ الْعُضْنَفَرُ²⁸ ، وَالنَّمِرُ

هَشُوشٌ، بَشُوشٌ يَلْقَى بِالرَّحْبِ، قَاصِداً وَعَنْ مِثْلِ حَبِّ الْمُنِّ²⁹ تَلْقَاهُ يَفْتَرُ

و يقول أيضا:³⁰

ذَلِيلٌ لِأَهْلِ الْفَقْرِ³¹ ، لَا عَنْ مَهَانَةٍ عَزِيزٌ ، وَلَا تَيَّةٌ لَدَيْهِ ، وَلَا كَبِيرٌ

حَرِيصٌ عَلَى هَذِي الْخَلَائِقِ. جَاهِدٌ رَحِيمٌ بِهِمْ. بَرٌّ، خَبِيرٌ، لَهُ الْقَدْرُ.

يحصي الشاعر في هذه الأبيات شمائل الإنسان الكامل الذي حارب النفس ورغباتها، وحمل عليها بالعنت والمشقة، فسكنت إلى ما غمرها به القلب من نفحات الخير والخلق الكريم، وأغدقت على الغير من وافر فضائلها، فعرفت بأخلاقها قبل أسمائها، وهكذا هو شيخ الأمير الذي عرفه بأخباره لا باسمه، فاحتلت الأخبار الصدارة مستغنية عن مبتدأتها (صفوح، هشوش، بشوش، ذليل، عزيز، حريص، رحيم)، وحُذِفَ المبتدأ للدلالة على العلاقة اللاعتمادية بين هذه الأخبار وصاحبها "محمد الفاسي".

²⁷ -الديوان: ص 202.

²⁸ -العضنفر: الأسد

²⁹ - حب المزن: ماء المطر. وقد يكون حب البرد، ويقصد به أسنانه البيضاء.

³⁰ - الديوان: ص 203.

³¹ - أهل الفقر: هم فقراء الصوفية

من خلال ما تقدم من الآراء والأفكار الأميرية نخلص إلى ما يأتي :

وظف الأمير عبد القادر أدوات الاستفهام بكثرة في الرؤية التأملية مقارنة مع أنماط الرؤية الأخرى، وهذا الانتشار الواسع لأدوات الاستفهام يتناسب وموضوعات هذه الرؤية خاصة تلك المتعلقة بحيرته في مسائل الكون و الوجود والحياة.

إن التوحيد الذي يقصده الأمير عبد القادر هو توحيد شهود لا التصور والاعتقاد كما هو الأمر عليه عند المتكلمين وأهل النظر عموما الذين نزهوا الذات الإلهية تنزيها عقليا، فبدا مناهضا لهذا الرأي، وكذا رأي الحلولية التي حكمت على الذات الإلهية بالتشبيه المطلق، وبين هذا وذاك جاء الأمير بحكم آخر يختلف عن هذين الحكمين وهو تشبيه الذات الإلهية بتشبيهها منزها، وقد أدت أساليب الإنشاء (الاستفهام، والنداء، والنهي، والتمني، والأمر) دورها في توضيح موقفه..

وفيما يتعلق بالإنسان الكامل فقد عبر الأمير عن رؤيته له بتوظيف أسلوب الحذف خاصة ذلك الذي يتعلق بالجملة الاسمية، فجاءت الأخبار المستغنية عن مبتدأاتها معبرة عن تبجيل الأمير التعريف بالإنسان الكامل وبصفاته، لا باسمه أو بشخصه.

Les mots clés الكلمات المفتاحية:

الرؤية التأملية : Vision contemplative

الخطاب الصوفي : le discours mystique

المنهج الإحصائي: Méthodologie statistique

الأدوات التعبيرية: outils d'expression

الإنسان الكامل : Homme parfait

أسلوب الإنشاء : Le style de construction

المذهب الفكري: Doctrine intellectuelle

أدوات الاستفهام: Outils interrogatifs

مسائل الكون: Les questions d'univers

الذات الإلهية: Soi divin